التراث المنسي

مسالك الأبصار

ومؤلفه الشهاب العمري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم، هو كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، وذلك بإشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكي باشا وبتحقيقه. ثم وقف مشروع اخراج الكتاب في مستهله لأسباب نجهلها حتى اليوم، ولكنا علمنا أخيراً أن دار الكتب قررت استئناف العمل في «مسالك الأبصار» واخراجه تباعاً إلى جانب الآثار القديمة الأخرى التي تعنى بنشرها

وهو نبأ يستقبله الباحثون والأدباء بمنتهى الغبطة. ذلك أن «مسالك الأبصار» من الآثار الاسلامية الضخمة التي تمتاز بغزارة مادتها وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة، التي كتبت في عصور متقاربة، وامتازت على جميع الآثار الاسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها؛ وهي: مسالك الأبصار، ونهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي. وقد أخرجت لنا دار الكتب «صبح الأعشى» كاملاً في أربعة عشر مجلداً، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو ثلثه في احد عشر مجلداً، وما زالت ماضية في اخراجه، وبقي عليها أن تستأنف العمل في ثالثة هذه الموسوعات الكبرى، ونعني «مسالك الأبصار»

كان القرن الثامن الهجري في مصر عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة في الأدب العربي مصرية محضة، فقد بلغت ذروتها على الأقل في مصر، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها. وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري هو أول كتاب الموسوعات ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ – ٧٣٢هـ) وقد وضع لنا موسوعته الفريدة «نهاية الأرب في فنون الأدب» في أوائل القرن الثامن الهجري في أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً، فجاءت أثراً ضخماً لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل في غزارة المادة وتنوع الموضوعات وطرافة الأوضاع؛ ثم تلاه العمري الذي نريد أن نتحدث اليوم عنه وعن جهوده، بوضع موسوعته «مسالك الأبصار»؛ وجاء القلقشندي ليختتم هذا الثبت في أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته «صبح الأعشى»

كان العمري دمشقي المولد؛ ولكن مصري التربية والوطن والتكوين؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى؛ وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب، ومن ثم كان تلقيبه بالعمري. ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة (١٣٠٠ م)، وتلقى تربيته الأولى في دمشق؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها واتخذها وطناً وموئلاً، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة، وبرع بالأخص في الكتابة والانشاء، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة (٧٠٩ – ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الانشاء والرسائل، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور

ولبث العمري إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس؛ وعني عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك والمسالك وطبائعها وخواصها؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين، ودرس الفلك أيضاً، ولم يكتف في درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة، ولكنه قرن الدرس النظري بنوع من الدراسة العملية، فتجول في أنحاء الشام والأناضول والحجاز وبعض الممالك الاسلامية الأخرى، حسبما يبدو ذلك في أكثر من موضع من سياق موسوعته، وحسبما يشير اجمالاً في مقدمته [1]، واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم تتح له زيارتها بأقوال العارفين والثقاة ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة [1]، حتى اجتمعت له من ذلك

(١) راجع الجزء الأول من «مسالك الأبصار» (طبع دار الكتب) ص ٣

مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره حتى أن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات البليغة : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق انشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يخجل الروض الذى باكره الحيا مُزهراً ، صرّف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أى العمرى ، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم ير من يعرف تواريخ الملوك المتقدمين من لدن جنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته »[1]

ولأقوال الصفدى ، وهو إمام النقد فى عصره ، قيمتها فى التنويه بخلال العمرى الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمرى نفسه مازال خير شاهد بعبقريته ولا سيما فى فن الانشاء والترسل ، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ماشغلنا بالنوى أن نودعا
ابثكموا شوقاً أبارى ببعضه ... حمام المشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبى مثله ... أقضى به الليل التمام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضى ... ولا أنه يلقى محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماقى مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب فى العمر ساعة
كمن فارق الأحباب فى العمر أجمعا

وقطع العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين

— ٢ —

ترك لنا العمرى تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صبابة المشتاق » وهو فى المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دمعة الباكى » و « يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل فى الشتاء و « النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود اليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير[1]

وقد انتهى الينا من هذا التراث أهمه وأنفسه ؛ فلدينا أولا كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمرى وأضخمها ؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً[2] ، ويقول لنا العمرى إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر الأيام والليالى » وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ؛ وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر[3] ، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه

(١) راجع ترجمة العمرى فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعاً من معجم الصفدى « أعيان العصر وأعوان النصر » وهو ما يزال مخطوطاً

(١) فوات الوفيات — ج ١ ص ٨

(٢) فى دار الكتب نسخة فتوغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٢٥٦٨ تاريخ) وتقع فى ٤٣ مجلداً أو قسماً ، والفضل يرجع فى استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكى باشا

(٣) راجع مسالك الأبصار — ج ١ — ص ٦

العظيم النويرى صاحب موسـوعة « نهاية الأرب » وهى أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحو فى تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « فى الأرض » والثانى « فى سكان الأرض » ، ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها وما تحتويه من أنهار وجبال ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة وما فيها من المدن والجزائر وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والاعراض الطبيعية ؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات ضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدى العمرى هنا دقة البحث والتحرى ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروى . ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر ، وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يجئ الكلام على التأريخ ، وهو قسمان ، تاريخ الدول التى كانت قبل الاسلام ، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الاسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » نشره المستشرق أمارى (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الايطالية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وينسب العمرى ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالى يدعى « بلبان الجنوى » عرفه فى بعض رحلاته واستقى منه معلوماته وهى معلومات فى منتهى الدقة ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر . وعنى صديقنا العلامة السيد حسن حسنى عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف افريقية والأندلس ؛ ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول

— ٣ —

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الانشاء والرسائل ، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة سواء فى توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الانشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية ؛ وإذا فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهى عبارة عن الرسوم والاجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علائقها الخارجية ، سواء فى إجراء المفاوضات السياسية أم فى عقد المعاهدات أو مخاطبة الدول الأخرى أو استقبال ممثليها ومعاملتهم أو فى تحرير المكاتبات الدبلوماسية . وتسمى هذه الرسوم والنظم فى الدولة الاسلامية « بالمصطلح الشريف » . وقد كان للعمرى أكبر الفضل فى تجديد هذه النظم ، وعلى يده بلغت ذروتها من الاتقان والتناسق والدقة ؛ وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمرى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »[1] وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية ؛ ثم يتحدث

(١) وقد طبع بمصر أكثر من مرة